

الدوائر العالمية والإنسانية بين الانتماء والالتقاء*

د. عمرو الشوبكي (**)

تعتمد هذه المحاضرة على محاولة إثارة بعض التساؤلات حول موضوع الهوية الإنسانية ولاسيما المتعلق منها بالقيم الإنسانية.

يُفترض في أي إنسان أن جزءاً من هويته - سواء كانت عربية إسلامية أم غير ذلك - ينضوي على منظومة من القيم الإنسانية، وبالتالي فنحن نتحدث عن قيم ومشاركات إنسانية مثل الحرية والعدالة والمساواة. وتسهم حضارات العالم المختلفة في بناء مثل هذه القيم العالمية. هذه القيم الإنسانية أخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ، وكان للعرب والمسلمين في فترة من الفترات إسهام حقيقي فيها وبخاصة في فترة العصور الوسطى في أوروبا، ثم جاءت مرحلة الاستعمار وصار خطاب التحرر هو الخطاب السائد في معظم دول العالم الثالث بما فيها دول العالم العربي والعالم الإسلامي، لقد حمل هذا الخطاب قيماً إنسانية ولولا هذا الخطاب لما كان لمفاهيم مثل العدالة والمساواة أن تجد طريقها إلى العالم العربي.

بعد خوض مرحلة التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث التي ربما لا تشترك في منظومة القيم نفسها، إلا أنه كان لها إسهام واضح في القيم الإنسانية، ثم بدأ يتبلور بشكل أوضح وزن علاقات القوى السياسية على المستوى الدولي في التأثير في هذه القيم، وصاحب ذلك خطاب يتمحور حول بعض القيم الإنسانية كالمساواة والعدالة لم يجد طريقه إلى التطبيق على المستوى الفعلي، وبرزت ظاهرة الكيل بمكيالين، وكل هذا يدخل في إطار التحولات السياسية التي جرت على النظام العالمي في العقود الثلاثة الأخيرة، والتي خلقت فجوة بين المؤمنين بهذه القيم - حتى في العالم الغربي - وبين حكوماتهم، ومن الشواهد على ذلك المظاهرات التي اجتاحت العالم بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية عشية غزو العراق، والفجوة قائمة وبارزة بين النخب السياسية ومن أسميهم "حراس الضمير"، وأصبح هناك مهمة إنسانية لاستعادة هذه القيم الإنسانية، ومن المهم أن يكون لدول الجنوب والعالم العربي إسهام في هذه المهمة، ودور أكبر في إرساء قيم إنسانية تساعد على ضبط كثير من الانحرافات السياسية.

إذا كان المشهد في العالم العربي هو صراع بين صناع القرار وحراس الضمير، فإن المشهد في العالم العربي - وبخاصة مصر - هو مشكلة في الأداء الرسمي في قضايا مهمة استدعت تعاطفاً إنسانياً كبيراً مثل غزو العراق والحرب على غزة. لقد كان الموقف الرسمي غائباً تماماً والموقف الشعبي شبه غائب على الرغم من التعاطف العالمي. ولعل ذلك يثير قضية مدى قدرتنا على المساهمة في مثل هذه القيم الإنسانية.

لا شك أن هناك بعض المتعاطفين أو المتفاعلين مع مثل هذه القضايا لكن قاعدتهم إسلامية، فالتعاطف نابع إما من الأخوة في العروبة أو الأخوة في الدين، وهذا الموقف لا أراه تكريساً أو مساهمة لإرساء قيم إنسانية عامة، بل هو تجسيد لخلل في قدرتنا على المساهمة في المسار الإنساني. وأعتقد أننا أهدرنا جزءاً من حججنا في الدفاع عن الشعب الفلسطيني بالتركيز على أنه شعب عربي مسلم، وأهملنا أنه شعب واقع تحت الاحتلال من دولة عنصرية تمثل استثناء من القوانين الإنسانية كلها، على الرغم من أن هذا البعد الإنساني يُدعم مسيرة الشعب الفلسطيني لنيل حقوقه بالإضافة إلى البعدين القومي والديني.

(*) عقدت هذه المحاضرة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في ديسمبر 2010.

(**) الكاتب والمفكر السياسي.

يُلاحظ أيضًا على المجتمع المصري أنه من أقل المجتمعات مساهمة في عملية التضامن الإنساني مع أي مجتمع آخر خارج حدودنا، أو إزاء أية قضايا خارج الإطارين العربي والإسلامي، وكان لذلك أثره السلبي حتى صارت القضايا العربية والإسلامية لا تلقى حماسًا عند البعض، بل وصل الأمر إلى وضع المشاعر الإنسانية في مواجهة مع الانتماء لمصر، وكأن التعاطف الإنساني مع قضية ما يخضم من انتماء الفرد لوطنه. ولا يقتصر الأمر على المجتمع المصري فقط بل إن التضامن الإنساني في بلدان العالم العربي على وجه العموم يكاد يكون منعدماً، وعلى العكس من ذلك فإن مواقف إيران وتركيا بما قدر من التفاعل والحركة أكبر مقارنة بالعالم العربي.

قد يبرر هذا الموقف السلبي في مصر بوجود قيود على التظاهر والممارسة السياسية، لكن في دولة مثل البرازيل خرج أكثر من نصف المليون يتظاهرون ضد الحرب على غزة، وهذا يعد تجسيداً لفكرة التعاطف الإنساني المجرد، إذ ما الذي يربط بين شعب فلسطين وشعب البرازيل الذي يبعد عنه آلاف الأميال، والذي لا يحمل عقيدة الجهاد عن الأرض المقدسة التي احتلها الصهاينة كي يتظاهر دفاعاً عنها. ففي الوقت الذي خرجت فيه المظاهرات في بلدان نامية ودول من العالم الثالث للدفاع عن قيم إنسانية عامة، فإن المجتمعات العربية يكاد يكون إسهامها منعدماً تمامًا في أي قضية إنسانية كبرى.

وعن قراءتنا للتفاعلات الموجودة بين المسلمين في المجتمعات الغربية وقيم هذه المجتمعات، نرى أن هذا النوع من التفاعل - في جزء كبير منه - يستدعي قيمة إنسانية، أي إن جزءاً من التطور الذي شهدته هذه المجتمعات يتجسد في التعامل مع واقع وجود هؤلاء المسلمين أبناء الجيل الثاني والثالث والقدرة على استيعابهم داخل المجتمع، وهذا التعامل أيضًا فيه استدعاء للقيم الإنسانية لأن هذه النظم السياسية يمكن الضغط عليها عن طريق استدعاء هذه القيم العامة مثل العدالة والمساواة وحقوق المهاجرين، فالقضية ليست فقط تفاعلًا بين نظم سياسية ومهاجرين أو أقليات دينية أو عرقية موجودة فيها، لكن يبرز هنا حضور البعد الإنساني القيمي، وبالقدر الذي تنجح فيه أوروبا في استيعاب هؤلاء المسلمين تقترب من القيم الإنسانية، وبالقدر الذي تعجز فيه عن دمجهم فيها تبتعد عن هذه القيم.

الأسئلة والمدخلات:

- م. عبد المعطي حجازي:

لماذا تشغل القضايا الإسلامية كل اهتمامنا دون القضايا العالمية؟ هل يرجع ذلك إلى الانكفاء على مشاكلنا الداخلية التي تستدعي البعد الإسلامي للتضامن؟ وهل كان الأمر في عصر نهضة المسلمين مختلفاً؟ وهل هذا مرتبط بالتخلف أم لا؟

-أ. فاطمة:

يعود تراجع قضية القيم الإنسانية على المستوى العالمي إلى تراجع دور الدولة في المجتمع، مما أدى إلى عودة القيم الإنسانية الأولية للظهور بقوة، ولكن هل يمكن للتضامن العالمي على مستوى القيم الإنسانية أن يقدم حلولاً لقضايا عجزت الدول عن حلها؟

- د. باكينام:

هل هناك اقتراب سياسي اقتصادي لمفهوم القيم الإنسانية؟ وما ترتيب العناصر السياسية والاقتصادية في منظومة القيم؟ وهل يمكن القول بوجود علاقة بين مستوى الديمقراطية ومستوى التنمية الاقتصادية في إطار منظومة القيم من ناحية وتراجع أو تقدم منظومة القيم الإنسانية في المنطقة العربية من ناحية أخرى؟ ذلك أن تأخير ترتيب البعد السياسي المتمثل في مستوى الديمقراطية والبعد الاقتصادي المتمثل في مستوى التنمية الاقتصادية في إطار سلم أولويات المنظومة القيمية يؤثر في اهتمامات المجتمع المصري، ويتجه به نحو اهتمامات منغلقة وأكثر خوفاً، ولا يساعد ذلك على الانخراط والمساهمة في تشكيل منظومة القيم العالمية.

- آية قاسم:

التراجع الذي تشهده الهوية المصرية سواء على صعيد الانتماء أم المشاركة في القضايا العامة يرجع إلى تهميش دور الفرد ونزع إنسانيته، فباتت المتطلبات الضرورية للحياة هي همه الرئيسي، ففقد الاهتمام بما هو عالمي بل وإقليمي، وألقى ذلك بانعكاسات على فقدان القيم الإنسانية بالتدرج.

- أحمد محسن:

يرى المصريون أن تعامل الحكومة المصرية مع أحرار العالم أمر يثير الإحباط، مثال ذلك التعامل مع جورج جالاوي إبان مشاركته في رفع الحصار عن غزة بقافلة شريان الحياة، وعلى صعيد المجتمع يلاحظ غياب لغة الحوار لا سيما من قبل الجماعات المتطرفة.

-أ. رفيدة الصفتي:

إن ضعف الانتماء في مصر قد يكون سببه سياسة تكميم الأفواه، والتي تعتمد على اضطهاد كل من يخالف النظام، وهذا جعل العديدين يعتزلون الحياة العامة.

- د. نبيل علي:

أوافق د. عمرو الشوبكي على أن الدفاع عن الإسلام دفاع هش للغاية، وهذا بناء على دراسة قمت بها عن "الدفاع عن الإسلام على الإنترنت" ووجدنا أن هذا الدفاع يفترق إلى كل ما هو متعلق بنوعية المتلقي الأجنبي وليس العربي. وهناك الآن تفكيك لموضوع الهوية من منظور العولمة، لأن العولمة الحالية تقوم على تجنيس القيم حتى ينساب المنتج المعربي الغربي ذو البعد الثقافي بشكل ناعم جداً، فتفكيك الهوية يبدأ بالقيم ويستدرجك إلى ما يقال عنه الخلق العالمي، ويحدد هذا الخلق مفكرون غربيون، وإسهامنا فيه ضعيف جداً، فما زالت التمرركزية الأوربية متغلغلة، لذلك علينا أن نعي

أن الخطاب المعادي للإسلام خطاب شبه علمي وليس علمياً صرفاً، وبالتالي تكون مواجهته بالانقراض من أعلى عن طريق علم النفس الثقافي الذي يتناول الهوية على المستوى الفردي، وعلم الاجتماع الثقافي الذي يتناول الهوية على المستوى الجمعي، ويجب مناقشة مقولات مثل: توحيد العالم وتجنيسه وأن هناك هوية واحدة وقيما مشتركة يجب مناقشتها بحرص شديد جداً. والمطلوب اقتفاء جذور معاداة الإسلام في الفكر الغربي في أعمال ماكس فيبر وماركس وغيرهم، فكل هؤلاء هاجموا الإسلام بشدة، فلا يقل شبه العلم إلا العلم الصحيح. وأطالب شباب الباحثين بأن يهتموا بعموم الثقافة الحديثة التي تتناول مثل هذه القضايا. من ناحية أخرى أوافق على أن القيم جزء مهم من منظومة الهوية، لكن الهوية تضم عناصر أخرى لا تقل أهمية كاللغة والانتماء والتاريخ.

- إحدى الحضور (لم تذكر اسمها)

ما دور المؤسسات السياسية الكبرى كالأمم المتحدة في تطوير القيم الإنسانية؟ وهل تلتزم هذه المؤسسات من الناحية الخلقية بإقرار هذه القيم أم تتعامل معها بطريقة مزدوجة؟

- أ.رنيم

ذكر أننا فقدنا القيم الإنسانية وفقدنا الاهتمام بالقضية الفلسطينية أو غيرها من قضايا العروبة، لكن لم يُذكر العلة في ذلك: هل السبب هو سياسات الدولة القسرية أم تشوه البعد الثقافي وعدم إدراك المرء للقضايا المحيطة به؟ أم البعد الاقتصادي وانكفاء المواطن سعيًا وراء الاحتياجات المعيشية؟

- عبد اللطيف:

إذا كان النظام السياسي يرفع شعار مصر - أولاً وأخيراً، فمن أين يتأتى للمصري الاهتمام بالقيم الإنسانية؟

- هبة السيد:

نتيجة لتعميدات دولية وإقليمية وداخلية هناك حالة من تدافع دوائر الانتماء بدلاً من تحاضنها وتعايشها فيما بينها، أصبحت هذه الدوائر وكأنها أطراف متدافعة كل منها يريد أن يكون بديلاً للآخر، فالولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال عندما تفكر فيما هو وطني قطري وما هو إنساني تضحي بالعديد من القيم الإنسانية لتحقيق ما تراه مصلحة لها.

في مسألة البعد الإنساني في إدماج المسلمين في أوروبا فهتمتها بشكلين مختلفين، فإن كان هذا الإدماج يعني محو كل خصوصيات المهاجرين في أوروبا وفقاً لادعاءات علو القيم الإنسانية، فإن البعد الإنساني في هذه الحالة يحمل معنى سلبياً. أما إذا كان الإدماج إقراراً بمبدأ الإنسانية وحق الإنسان في أن يكون له حضارته ومعتقداته الخاصة به، فإن ذلك يعد اعترافاً بالتعددية.

في مسألة تفسير التظاهرات الموجودة في الغرب على أنها تبين للقيم الإنسانية: ألا يمكن رد ذلك للبعد التنظيمي والإعلامي والمؤسسية في الغرب؟ وعلى الجانب الآخر يكون غياب هذه التظاهرات عن العالم العربي بسبب غياب المؤسسية والبعد التنظيمي.

د. كمال المنوفي:

في ضوء ما طرح، ألا ترى د. عمرو أن الانتماء الوطني يقف وراء الاهتمام بالقضايا العربية أو الإنسانية؟ فضعف الانتماء الوطني يقلل من الاهتمام بالقضايا أو القيم الإنسانية والعكس بالعكس، وبالتالي علينا أن نفتش عن أسباب ضعف الانتماء الوطني، وهنا نجد العلل سواء كانت سياسية أو اقتصادية، فمن كان انتماءه لوطنه هشاً وضعيفاً لا يُنتظر منه الاهتمام بقيم إنسانية أو حضارية.

أ.مدحت ماهر

مزيد من الانتماء الوطني يؤدي إلى مزيد من الانفتاح على الإنسانية، وعلى مستوى آخر فإن مزيداً من الإسلامية يؤدي إلى مزيد من الإنسانية، فالمصري حين يخرج دعماً للفلسطيني أو العراقي والبوسني فهذا جزء من كيانه الإنساني، من جانب آخر فإن التدين الحقيقي عبر التجربة والنظر هو الباب الأوسع للدخول إلى القيم الإنسانية. الأخطر - كما أرى - هو من أين تنبع القيم الإنسانية؟ ومن الذي يؤسس لها ويضع الإطار المرجعي الخاص بها؟ فالإنسانيون الذين نظموا تظاهرة من أجل فلسطين خرجوا أيضاً في أخرى من أجل المثليين؛ ما أفصده أن كلمة الإنساني يمكن أن تذهب إلى مذاهب أخرى إن لم يكن لها إطار مرجعي واضح ومحدد.

د. سيف الدين عبد الفتاح:

ملاحظات قليلة حول ما يتعلق بتزييف مفهوم الإنساني أو العالمي، مثلاً كان أول تعليق رسمي للولايات المتحدة بعد تسرب بعض الوثائق الأخيرة من موقع ويكيليكس أن هذا التسريب لن يضر بمصالح أمريكا فحسب، بل يضر بمصالح العالم أو النظام الدولي، وكأن الدفاع عن بعض مسائل السياسة الأمريكية مصلحة عالمية، إن مفاهيم مثل المواطنة العالمية والإنسان العالمي أشبه بمفاهيم تحرث الأرض لفكرة التعميط العولمي أو ما يمكن تسميته بأوهام الهوية، فعلاقة الإنساني بالعولمي ربما تحتاج منا لبعض التوضيح.

اتفق معك فيما يتعلق بأن عالم المسلمين فيه شيء من الأمية الإنسانية، وهذا أمر منذر بالخطر إذا ما ذهب الظن إلى أننا الوحيدون في العالم المستهدفون، أو أن نقيس الآخرين بقدر اختلافهم أو اتفاقهم مع قضايانا، ولكن -على جانب آخر- يجب ملاحظة المد العنصري الذي بدأ ينمو داخل الغرب وأصبح واضحاً في خطاب النخب. ونؤكد في هذا السياق أن العنصري هو ضد الإنساني.

وفيما يتعلق بمسألة أنه كلما كنت إسلامياً كنت إنسانياً فإن الآية القرآنية لم يرد فيها أنه من قتل مسلماً بل ورد فيها ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: آية 32).

تعقيب د. عمرو الشوبكي:

- فيما يخص إشكالية الوطني والإنساني، أتفق مع فكرة التناسب الطردي بين الانتماء للوطن والتفاعل مع القضايا الإنسانية، وبالتالي فإن المشكلات الموجودة في الوضع السياسي المصري والقدرة التنظيمية ومساحات تحرك مؤسسات المجتمع المدني تؤدي دوراً في هذا الصدد، لكني ما زلت أرى أن هناك مشكلة ثقافية والتي عبر عنها د. سيف في قوله (الأمية الإنسانية)، والشاهد على ذلك أن دول أمريكا اللاتينية التي تفاعلت مع كثير من القضايا ذات الطابع الإنساني العام تعيش ظروفًا تكاد تكون مشابهة لما نعيشه من ضغط اقتصادي ونظم حكم عسكرية، لذلك أرى أن هذه المسألة تحتاج لاجتهاد بحثي وتراكم معرفي وسياسي وجهد لتجاوز هذه الثغرة.

- فيما يخص الفجوة بين النخبة السياسية الحاكمة في أوروبا وحراس الضمير وما يدافعون عنه من قيم إنسانية نبيلة، فقد لفت د. سيف النظر إلى تصاعد بعض التيارات اليمينية المتطرفة ضد هذه القيم وهذا تجسيد لتحدٍ حقيقي نواجهه جميعاً الآن.

- فيما يخص موضوع المسلمين في أوروبا، لم أتحدث عن البعد الإنساني، لكني ركزت على مفهوم القيم الإنسانية، لأن صيغة التفاعل التي أقصد هي تفاعل بين طرفين، ولا يتصور أن المسلمين في المجتمعات الأوروبية لم يغيروا في قيم

هذه المجتمعات وصاروا جزءًا من الجدل الدائر في فرنسا حول العديد من القوانين خاصة التي تتعلق بهوية الدولة العلمانية والقضايا المتعلقة بها، فالعلاقة تفاعلية، فكما هو مطلوب من المواطن العربي في هذه المجتمعات أن يتمسك بهويته، عليه في الوقت ذاته التمسك بمنظومة قيم إنسانية عامة، وكذلك على المجتمع الأوربي احترام ذلك. لا ننكر التحدي المتمثل في خطر الذوبان ومحاولات بعض الاتجاهات المحافظة أن تفكك هذه الهوية والتعامل مع فكرة الدمج وكأنها مساوية لفكرة التماهي الكامل. ولمواجهة هذا التحدي ينبغي استدعاء القيم الإنسانية أيضًا، فلا يتناقض فخر العربي والمسلم بذاته والتزامه بمنظومة القيم ذات الطابع الإنساني والتي لا تمس هويته ومبادئه. وعلى الآخر أن يقبل وجود الاختلاف، لكن علينا تجنب خطأ التعميم فالمجتمعات الأوروبية في هذا الإطار ليست متشابهة، لأن المجتمع الفرنسي -على سبيل المثال- متحفظ جدًا تجاه كل ما يمكن أن يكون برأيه تهديدًا لهوية الدولة العلمانية، على خلاف ما هو موجود في النموذج البريطاني الأكثر انفتاحًا على التعددية وقبول الاختلاف.

- فيما يتعلق بتركيز النظام الحاكم على فكرة مصر- أولاً، فإن التفرغ لحل مشكلاتنا الداخلية طوال هذه العقود الأخيرة لم يثمر عن حل هذه المشكلات بل إلى تفاقمها، ولعله من المغالطة رفع مثل هذا الشعار، ذلك أن المصالح الداخلية تتحقق بمد جسور خارجية، والنموذج التركي يقوم على تفعيل المصالح التركية العليا من خلال بناء جسور مع العالم العربي وأوروبا وأمريكا، وعن طريق الدفاع عن قيم إنسانية عامة يقبلها أي مواطن في العالم. في المقابل نجد شوائب في الخطاب المصري تجاه بعض القضايا قد تصل إلى حد العنصرية، وهنا علينا إدراك المساحات المتاحة للإسهام وإبراز الدور بالمعنى السياسي والإنساني، دون أن يكون ذلك على حساب المصالح الوطنية التي هي الهدف والحرك ابتداءً.

- وعن فكرة التضامن الإسلامي التي طرحها أ.مدحت، فهذا انتقال لمساحة فيها آراء واختلافات سياسية.

- وعن فكرة الإنسان العالمي وتنميط البشر، لست من أنصار هذه الفكرة وغير مؤمن بها، لأن جزءا من ثراء هذا العالم سببه التنوع الموجود بين البشر، وبالتوازي مع وجود مناطق حضارية كبرى في العالم نجد القيم الإنسانية العامة التي تخص المجتمع الإنساني كله بعيدًا عن التوظيف السياسي، ويمكن التمييز بين -ما أسماه د.سيف- التنميط العالمي والقيم الإنسانية، فالعولمة تحمل ما هو سياسي واقتصادي، أما القيم الإنسانية فهي ما نحتاج إليه لضبط العولمة وضبط كثير من الانتهاكات المحلية، انطلاقًا من قيم تحترم الخصوصية وتحترم هويات كل مجتمع.

د.سيف

ألخص القول في نقطتين:

* أن التبادل الإنساني عنصر من عناصر التعاطف الإنساني، فلا تطالب أن يساعدك غيرك إلا إذا كنت قد ساعدته.

* الانتماء الإنساني ليس خصمًا من أي انتماء.